الفصل السابع

الحزب والبحث عن فلسفة تفضل المادية

لا بد أن تتضمن المادية بعض الحقائق ما دامت تهيء الفرصة للعمل المنسق وتعبر عن موقف معين ، وما دامت الملايين تنظر إليها كأمل وتجد فيها صورة لأحوالها المعيشية . ولكن ذلك لا يعنى أنها صادقة كلها كعقيدة ، فالحقائق التي تتضمنها يمكن أن يحتويها الخطأ .

وكذلك يمكن أن تكون المادية قد لفقت من أجل تجميع هذه الحقائق بناء سريعا مؤقتا ، مثل الذى يطلق عليه الخياطون اسم « البروفه » — وفى هذه الحالة تكون المادية أكثر مما يحتاجه الثورى ، وأقل فى نفس الوقت مما يحتاجه هذا الثورى ، لأن هـذا التجميع المتعجل القسرى للحقائق يمنعها من أن تنسجم وتتناسق تلقائيا وتكتسب وحدة حقيقية .

والسياسى يجد فى المادية الأسطورة الوحيدة التى تشبع مطالبه الثورية ، وهو لا يطلب أكثر من ذلك .

ولكن الفيلسوف لا يطلب أسطورة بل حقيقة ، وهو لذلك

يحاول أن ينقذ المادية من الخطأ الذى تردت فيه بدراسة الموقف الثورى ورسم فلسفة تفضل المادية وتصف الطبيعة والعلاقات الإنسانية وصفاً صادقا .

جان بول سارتر

* * *

المتأمل لتاريخ جان بول سارتر السياسى يجده يتذبذب بين حالتين ، فهو يهاجم مثلا معسكرات الاعتقال السوفيتية سنة ١٩٥٠ ، وفى سنة ١٩٥٢ يعلن أن الروسيا تريد السلام وتبرهن على إرادتها تلك فى كل يوم .

وهو فى سنة ١٩٤٨ يكتب فى مجلة « العصور الحديثة » معلقا على مقال « لكلود ليفور » بأن الاتحاد السوفيتى ليس إلا « مشروعا » قد انهار إلى حين . ومع ذلك فهو فى نفس الوقت يشهد بأن الثورة الروسية تتمضن الوسيلة الوحيدة لتحقيق المجتمع اللاطبقى .

وهذا الذى قد يبدو تذبذبا فى موقف سارتر تفسره الفقرة التى بدأت بها هذا الفصل ، فسارتر يرى فى «المادية» أنها الحقيقة ولكنها ليست كل الحقيقة ، « فالمادية الثورية » أو « الجدلية » مادية خاطئة فى بعض أجزائها وتحتاج للمراجعة والاستقصاء

الفيلسوف ولبس السياسى ، حتى تصير صادقة مع الموقف الثورى وحاجات الناس .

ويؤمن سارتر بأن أمل الإنسانية فى مجتمع لاطبقى ، وهو يرفض كل المجتمعات التى تقوم على أساس الملكية الفردية لوسائل الإنتاج .

وآراء سارتر فى السياسة وعلاقتها بالفلسفة والأدب يتضمنها مقالان نشرهما فى مجلة « العصور الحديثة » . وهذان المقالان هما « المادية والثورة Matérialisme et Révolution » و« الوجودية والماركسية Existentialisme et Marxisme » .

وسارتر يؤكد أن المادية حقيقة لأنها فلسفة الطبقة التى تتطور بسرعة وتسير قدما نحو فرض نفسها .

ولكنه لا يريد المادية بالشكل الذى يقدمها به الماركسيون وعلى الأخص أتباعهم فى فرنسا .

إن الماركسية بفلسفتها المادية الجدلية تعتقد أنها الفلسفة الوحيدة التى لديها حاجة الطبقات المضطهدة ، وهى فلسفة واقعية وصحيحة قامت عليها ثورة كبرى ونجحت واستطاعت أن تصنع دولة وتخرج بها سليمة من حرب مدمرة ، بل استطاعت

أن تجذب إليها مجموعة من الدول الصغرى وتكون عالماً قائماً بذاته يقف وجها لوجه أمام الرأسمالية العالمية بجبروتها وشرورها موقف الند للند ، بل وأن تدعى انتصارها المؤكد فى أى حرب تشنها الرأسمالية الدولية عليها .

هذه هى الفوائد العملية للماركسية الجدلية ، ولكن هل تكفى فائدتها العملية هذه للإيمان بها كعقيدة صحيحة وصادقة وكلية ؟

يقول ماركس مثلا فى الجزء الرابع عشر من مؤلفاته :

« إن نظرة المادية إلى العالم تعنى فهم الطبيعة كما هى بدون إضافة غريبة عليها »

ويعلق سارتر على ذلك بقوله : إن المقصود هنا فى هذا النص الذى يثير الدهشة هو حذف الذاتية الإنسانية ، هذه « الإضافة الغريبة على الطبيعة » .

إن المادى حين ينكر ذاتيته يظن أنه قد أزالها ، ولكن حيلته حيلة مفضوحة ، فالمادى لكى يزيل الذاتية يعلن أنه موضوع ، أى أنه مادة للعلم ، ولكنه بعد أن يزيل الذاتية فى سبيل الموضوع يعتبر نفسه نظرة موضوعيه بدلا من أن يرى نفسه شيئاً بين الأشياء تتدافعه حوادث الكون المادى ... هذا تلاعب بالألفاظ بشأن الموضوعية فهى أحيانا تعنى الموضوع

المنظور . . . وأحياناً تعنى القيمة المطلقة للنظرة الذاتية . . .

والمادى يقول :

..كل ما هو معقول فهو واقع وكل ماهو واقع فهو معقول ..

فالمادي يرى أننا لم ننشىء الكون ولكننا من إنشاء الكون ، فكيف إذن نعرف أن الواقع معقول مادمنا لم ننشئه ؟

إن المذهب العقلى المادى يتحول بالجدل إلى مذهب لا عقلى ويهدم نفسه بنفسه .

وقد يرد عليه الماديون الجدليون بأنه قد خلط بين «المادية» الساذجة التى يبشر بها « هلفتيوس » و « هولباخ » وبين « المادية الجدلية » ، فالمادية الجدلية تتميز عن المادية الأخرى بأن الجدلية تقول بالحركة الجدلية فى الطبيعة ، والتى يصير بها الجديد إلى ضده ليندمج به فى مركب آخر ، وهذه الجدلية هى جدلية « هيجل » وهى قائمة على مبدأ ديناميكية الأفكار ، فالأفكار تركيبية ، والماديون يرون أن هيجل مخطىء ، وأن الجدلية هى جدلية المادة وليست جدلية الأفكار .

ويتساءل سارتر : أية مادة يعنون ؟

ــ إنها المادة التى يتحدث عنها العلماء .

ويجيب سارتر :

لقد غفلوا عن أن ما يميز هذه المادة هو عطالتها . وعطالة المادة تعنى أنها عاجزة عن أن تخلق شيئاً بذاتها . . إنها قاطرة تحمل حركة وطاقة ولكن هذه الحركة وتلك الطاقة يأتيانها من الخارج . . فالعلم ومناهجه ضد الديالكتيك أو الجدلية . .

. . ومن أغرب ما يبرر به الماديون هذا الخلط قولهم : صحيح أن العلم والديالكتيك يسيران فى اتجاهين متعارضين ، ولكن ذلك راجع إلى أن العلم يعد من وجهة النظر البورجوازية ، وهى وجهة نظر تحليليـــة ، أما الديالكتيك فهو تفكير البروليتاريا نفسه ! !

فهل العلم فى الإتحاد السوفييتى يختلف فى مناهجه عن العلم فى الدول البورجوازية ؟

ومع ذلك فالعلم خارجى بالنسبة لذاته ، وأوضح خصائصه ! إحصائية . .

إن الطبيعة حالة خارجية فكيف نجد فى هذه الحالة الخارجية مكاناً لحركة داخلية هى حركة الديالكتيك ؟

ويبرز سارتر تعارض « ستالين » الفكرى وهو يشرح مادية نشوء الأفكار .

وستالين يقول : « إذا كنا نرى فى ظل نظام العبودية أفكاراً ونظريات اجتماعية . . . بينما نرى غيرها فى ظل النظام

الرأسمالى . . فإن ذلك لا يرجع إلى طبيعة الأفكار . . بل يرجع إلى مختلف شروط الحياة المادية التى تكتنف المجتمع . . فحالة المجتمع ، أى شروط الحياة المادية التى تحيط المجتمع ، هى ما يعين أفكاره وآراءه السياسية . .

وهو يقول فى نفس الكتاب — أقصد كتابه « المادية الجدلية والمادية التاريخية » . إن الأفكار والنظريات الاجتماعية الجديدة لا تظهر إلا حينما يفرضها تطور حياة المجتمع المادية ، وإذا ظهرت هذه الأفكار والنظريات الجديدة فلأنها ضرورة اجتماعية . »

فهل علينا أن نعتقد مع « ستالين » أن حياة المجتمع الروحية هى انعكاس للواقع الموضوعى ، انعكاس للوجود ، أم نقول مع « لينين » خلافا لذلك « إن الأفكار تصبح وقائع حية حين تعيش فى وعى الجماهير ؟

وستالين يقول : إن إفلاس « الفوضوية » و « الاشتراكية الثورية » يرجع إلى مثاليتها . « ومصدر قوة الماركسية اللينينية هو أنها تستند فى نشاطها العملى على حاجات تطور الحياة المادية للمجتمع دون أن تنفصل أبداً عن الحياة الواقعية للمجتمع » .

فإذا كانت المادية خير أداة للعمل فحقيقتها إذن حقيقة عملية ، فهى صادقة بالنسبة إلى الطبقة العاملة لأنها تنجح عن

طريقها . . وهى أصدق من المثالية التى خدمت البورجوازية . . ولكن حين تمتص الطبقة العاملة الطبقة البورجوازية ، وتحقق المجتمع الذى لاطبقات فيه ، تتلاشى الحاجة المادية ، لأنها تفكير الطبقة العاملة التى تلاشت .

وهكذا تحمل المادية بذور فنائها باسم مبادئها نفسها . والشيوعى لا يريد أن يناقش هذا التناقض فى عقيدته ، ولكنه يؤمن إيمانا غير مدقق ، ويسلم بمبدأ السلطة والإيمان الأعمى بأن المادية يقين ، فهو يلعب لعبة البورجوازية ، ويتصرف كما يتصرف البوليس عن غير وعى منه . ومن أجل هذا التدقيق الذى يرفضونه يرفضون المثقف ، فالثقافة تهمة بالنسبة لهم .

ويشرح سارتر فى الجزء الثانى من كتابه « المادية والثورة » ـ ماهية الثورة .

والثورى عنده هو الحزب أو الشخص ضمن الحزب ، الذى تهيء أعماله ـ عن قصد ـ ثورة .

والثورة هى ما يصفها به « آن ماتييز » بأنها التغير العميق فى نظام التملك .

وليس فى وسع كل إنسان أن يكون ثوريا ، فالثورى لا بد أن يكون من المضطهدين .

ولا يكفى الاضطهاد لكى يكون المرء ثوريا ، فقد يكون مضطهداً وبورجوازيا ، فالثورى هو المضطهد وهو العامل ، وهو مضطهد لأنه عامل .

ولا يكفى هذا أيضاً ، فقد يكون العامل مضطهداً ويتمرد ليطالب بتحسين حاله هو فقط — وكلنا سمعنا عن إضراب عمال كذا أو عمال كيت — فهؤلاء وأولئك مثيرو فتن ، ويضربون لتحسين أحوالهم هم فقط .

ولكن المضطهد الثورى — خلافا لذلك — يتجاوز الوضع الذى هو فيه ، ويثب إلى المستقبل فيرى تاريخا إنسانيا ، ويراه ارتقاء إلى الأحسن ، ويراه علاقة عمل ، فالثورى إذن يعمل من أجل تحرير الطبقة المضطهدة بأسرها . وهو خلافا للمتمرد الذى يبقى وحيداً لا يفهم نفسه إلا فى علاقات التضامن بينه وبين طبقته .

والثورى فلسفة ثورية — تعقل وضعه وتربطه بالعالم ، وهذه الفلسفة قد يبشر بها البعض ولكنها لا تكون مع ذلك ثورية .

إن هؤلاء البعض يوجدون وفلسفتهم لا تهدف إلى تغيير العالم .

إنها تتأمل العالم كما هو ، فهى تنظر إلى المجتمع وإلى الطبيعة

من ناحية المعرفة الصرفة ، دون أن تعترف بأن هذا الاتجاه يجنح إلى الإبقاء على حالة الكون الراهنة .

إنما الفلسفة الثورية هى الفلسفة التى تدعو للعمل . وهى الفلسفة التى تجعل من الفكر والعمل شيئاً واحداً ، ومن أجل ذلك لا يطالب الثورى بحقوق ، بل هو خلافا لذلك يحطم فكرة الحق نفسها ويعتبرها نتاجا للعادة والقوة ، فكل حق هو من وضع البشر ومن نتاج النظم الاجتماعية ، والنظم الاجتماعية يمكن تجاوزها لنظم أخرى ، لمجتمع آخر لم يوجد بعد ، ولكنه يُستَشَف ، ويخلقه الجهد الذى يبذله أفراد المجتمع لتجاوزه . .

والثورى وهو ينفصل عن الموقف الذى يعيش فيه ليتخذ فيه رأياً إنما يمارس الحرية .

وهذه الحرية ليست معرفة صرفة ولكنها معرفة وعمل معاً ،

وهى ليست الحرية المثالية التى بشرت بها الرواقية ، أو المسيحية ، هذه ليست حريات بل قيوداً .

ولا ينبغى أن يقال إن العامل لا يتمتع بالحرية لأنه يؤدى أعمالا تتنافى مع الحرية ، ولأنه قد استحال شيئاً هو نفسه بتنفيذ التعليمات وأداء حركات بعينها .

إن ما يؤديه العامل هو بعض من حرية محسوسة ، فهو لا يعمل تحت رحمة مزاج صاحب العمل .

وصحيح أن عمله مفروض عليـــه ولـكن عمله يتيح له السيطرة على الأشياء ، فختمية المـادة هى أول صورة من صور حريته ، فهو يعيشها فى حركاته ويمارس حرية عينية هى حرية تبديل المادة .

ومن خلال هذه الحرية تتشكل معانى الأشياء ، ويبين معنى العالم ، فالشىء يأخذ معناه الخاص من خلال استعمالاتى له ، وأهدافى عليه ، فالتل شديد الانحدار لأننى أريد أن أصعده ، وقطعة السكر يطول ذوبانها لأننى ظمآن ، والأشياء ثقيلة عندما أريد رفعها

وإذن فالأشياء لا معانى أساسية فيها ، ولا علاقات بينها ، حتى يطلبها الإنسان لتغيير واقعها .

وبالمثل فالإنسان ان يفهم المجتمع حتى يتفاعل فيه ويريد تغييره . وفى هذه الحالة وحدها يستطيع تفهم تركيبه . وهذا ما فهمه ماركس حتى الوقت الذى بدأ تعرفه بانجلز ، ومن يومها تغير وفسد تفكيره .

إن المثالية والمادية تبددان الواقع . الأولى تبدده لأنها

تزيل الشيء ، والثانية تبدده لأنها تزيل الذاتية ، ولكن لكي ينكشف الواقع يجب أن يصارعه الإنسان . . الثورى .

إن واقعية الثورى تقتضى وجود العالم والذاتية كليهما .

وأكثر من ذلك أنها تقتضى ترابطاً بينهما بحيث لا نستطيع تصور ذاتية خارج العالم ولا عالماً يضيئه جهد ذاتية .

وهذا ما كان يؤمن به ماركس سنة ١٨٤٤ قبل لقائه المشئوم مع إنجلز .

إن الثورى لن يفهم المجتمع ويسعى لتغييره إلا برفضه المادية التى تحيله إلى مجرد قوة تاريخية غير واعية .

وحريته ليست حرية الفوضوى وإلا لانتمى إلى الطبقة صاحبة الامتيازات .

وهى حرية تعترف بحرية الآخرين وتطالب بأن تعترف بها الحريات الأخرى .

... ومن هنا كان بطلان المادية ...

وينهى سارتر مقاله قائلا :

إننا نسجل اليوم أزمة الفكر الماركسى . . المحصور بين الشيخوخة التى تصيب الأسطورة المادية ، وبين الخوف من

إدخال الانقسام فى صفوف الشيوعيين إذا تبنوا عقيدة جديدة . وأخيارهم يسكت ويمتلىء الصمت بثرثرة الحمق ..

ولا شك أن القادة ـ قادة الشيوعيين ـ يقولون لأنفسهم ـ إن صراعنا ليس صراع أفكار ، بل هو صراع سياسى اجتماعى ، صراع شر مع شر ، فما قيمة النظرية ؟

وهم على حق ـ ولكن أى نوع من الناس يصبون فيه تعاليمهم هذه ، وما هى النتيجة التى ينتظرونها منهم ما دامت فلسفتهم التعليمية هى : أخطىء تنجح ! !

وأى ضرر يوقعون بالعالم وبالناس وبالثورة إذا خنقت ماديتهم المشروع الثورى ؟ .

ومن أجل ذلك كون سارتر جبهة جديدة إسماها « التجمع الديموقراطى الثورى Rassemblement Democratique Revolulionaire » بالاشتراك مع «دافيد روسيه» و «جيرارد روزينتال » فى مايو سنة ١٩٤٨ . وأصدروا صحيفة كل أسبوعين اسمها « اليسار La gauche » ، ظهر منها ثلاثة عشر عدداً ، ثم توقفت فى مارس سنة ١٩٤٩ .

وفى آخر أعدادها دعت القراء للتصويت ضد مشروع

«مارشال» ، والتفاوض مع الهند الصينية ، وإعطاء الجزائر حريتها .

ودعى سارتر الطبقة العاملة للإتحاد ضد مشروع «مارشال» متهماً هذا المشروع بإخفاء نوايا الإمبريالية الأمريكية نحو أوروبا والدول المتخلفة اقتصادياً .

وفى أحد عددى يونيه سنة ١٩٤٨ ، نادى شباب أوروبا « أن يتحدوا ليصنعوا قدرهم بأنفسهم » ، وهو هنا يقرر فلسفته التى تقول بإمكانية تخطيط الإنسان لمصيره .

ولقد فشل « التجمع الديموقراطى الثورى » لتخلف الجماهير عن مؤازرته . ومع ذلك فكان أمل سارتر الكبير هو تكوين هذه المنظمة وتطويرها بعد ذلك إلى حزب سياسى .

وفلسفته فى مسرحيته الأخيرة « الله والشيطان » تؤيد وجهة نظره السياسية ، فهو يرى أن الثورة الاجتماعية غير ممكنة ما لم يعاضدها حزب سياسى .

وهو بالطبع يتحدث هنا عن الظروف السياسية فى فرنسا دون غيرها ، فكل بلد وكل شعب فى نظره بيده أمر نفسه ، وهو حر فى تكييف الوضع ، والطريقة التى تؤدى بهما إلى الاشتراكية .

« والاشتراكية تخلق اللاطبقية ، وقبل أن توجد اللاطبقية لا بد من انتصار الطبقة العاملة ، ولذلك فالعامل ثورى فى بداية الحركة التى يقوم بها . وهو ثورى لتجربته مع الآخر ، فالآخر عدوه ، وبيده السلطة التى سرقها منه ، وهو لن يستطيع استرداد سلطته إلا بالنظر إلى الآخر ، والنظر إلى الآخر معناه الثورة ، ولكن ثورة العامل المفرد ليست ثورة ، وإنما تمرد ، والثورة هى ثورة العمال كلهم ، ولذلك فلا بد من الحزب . وهذا ما يعلنه سارتر فى مقالاته فى مجلة « العصور الحديثة » عام ١٩٥٤

وعندما قام الروس بقمع ثورة المجر بطريقة وحشية سنة ١٩٥٦ أعلن سارتر تحلله نهائياً من كل صداقاته مع الشيوعيين .

وفى التاسع من نوفمبر هاجم تدخل الروس فى المجر فى حديث له بمجلة « لاكسبريس » ، وكان هجومه باسم الاشتراكية نفسها ، ولكنه لام على الرأسمالية الغربية تآمرها على عمال المجر بتحريضهم على الثورة بالدعاية لها ، وبالدسائس والرشوة وحرب الإذاعات وبارك سارتر الحركة العمالية فى المجر ، ونوه بوعى الاشتراكية ، إذ أنها بثورتها على الروس أثبتت أنها قادرة على تخليص نفسها من اليمين واليسار معاً .

وفى مقاله «الوجودية والماركسية Existentialisme et Marxisme» يعترف سارتر بأن الماركسية هى نواة الفكر الحديث ، وهى خاطئة فى أجزاء منها ، ولكن ما من مذهب آخر يستطيع أن تكون له مثل ما للماركسية من نجاحات .

ويعلن سارتر أن الوجودية لن تهزم الماركسية ، فقد بدأت الوجودية بمعارضة المعرفة ، وهى اليوم تحاول أن تندمج مع المعرفة .

ولا أمل للوجودية فى فرض نفسها كمذهب ، ولكنها تستطيع أن تساعد الماركسية وتأخذ بيدها من الحفرة التى حفرتها لنفسها ، فلقد صارت الماركسية منهجية أكاديمية ، وتخلفت عن أن تكون قوة حقيقية دافعة وهذا التخلف الذى لحق بالماركسية ، هو النتيجة الحتمية للرحلة الستالينية فى الروسيا وفى أى بلد آخر يعتنق الماركسية ، فالستالينية ظاهرة تاريخية تشكل التناقض فى الماركسية ، والوجودية هى أمل الماركسية للخروج من وهدة الستالينية .

ولا أمل فى خروج الماركسية من حصار المادية الثقيل ، والتعقيد الذى يستشرى فيها ، والذى يكاد يقضى عليها ، إلا بأن يعتنق العمال أنفسهم الوجودية ويمزجوها بالماركسية . ومسئولية العمال أو مسئولية الحزب فى ذلك هى مسئولية

الأحرار المسئولين عن مصير حاضرهم ومستقبلهم . وهى مسئولية الحرية .

ولقد قلنا بأن الحرية ترتبط بالفعل ، والفعل هو أن تقوم بتغيير شكل العالم ، أن تنظم وترتب الوسائل بقصد إنشاء غاية وتحقيق هدف ، أن تنتج تعقيداً وسائلياً بطريقة نظامية قاصدة تغير من الأجزاء ، وتعم نتيجة التغيير على الكل . ويجب أن يكون الفعل قصدياً عن مبدأ ، فالمدخن الذى يهمل ويلقى سيجارته فيتسبب فى حريق لم « يفعل » . أما العامل الذى يفجر أصابع ديناميت فى محجر من المحاجر ، والذى يطيع الأوامر ويرضخ لها — هذا العامل يعرف ما فعل ، وهو قد حقق عن قصد هدفا واعياً .

وإذن فالفعل كشرط له يجب أن يكون صاحبه صادراً عن سبب ، هادفا لقصد . ولكن لا يلزم أن يتحقق القصد لكى يكون الفعل تاماً ، فالامبراطور قسطنطين عند ما بنى بيزنطة لم يكن يعرف بأنه بذلك يقسم الكنيسة قسمين ويضعف الامبراطورية الرومانية .

فالنتيجة هنا منفصلة عن الفعل ، وأنت قد تهدف إلى إنشاء شىء ويحدث عكس ما تريد ، فالنتيجة لا تهم ، وإنما المهم أنك وعيت وأردت وهدفت .

والإنسان بحكم وجوده ملعون ، ولعنة الإنسان أو لعنة وجوده هى الحرية ، وبما انه حر فهو يتحمل عبء العالم على كتفيه ، إنه مسئول عن العالم ، وعن نفسه . والمسئولية هنا هى مسئولية فى أبسط أشكالها ، وهى الوعى بأن الإنسان هو صاحب الموضوع . وحينئذ فالمسئولية عن « الوجود لذاته » مسئولية ضخمة تدير الرأس ، ما دام الإنسان هو الذى « يوجد » العالم ، ما دام هو نفسه الذى يوجد نفسه . وإذن فمهما كان الموقف الذى يجد نفسه فيه ، فإن « الوجود لذاته » يتحمل كافة مسئولياته ونتائجها . وهو لا بد أن يتحمل الموقف كله بوعى يفاخر بأنه موجد هذا الموقف مهما كانت المخاطر التى تتهدد شخصه ، فمن طريق هذه المخاطر سيكون للموقف معنى من داخل وخلال مشروع الإنسان . وإذن فلا يتبقى أى معنى لأن تفكر فى الشكوى ما دام أنه لم يتدخل شىء ما ، دخيل علينا ، فى تقرير ما نحسه أو نعيش من أجله ، أو تحديد ماهية وجودنا .

وليست هذه المسئولية الكاملة هى الاستقلال والانفراد الكاملين ، ولكنها المستلزم المنطقى لنتائج حريتنا . والذى يحدث لى يحدث من خلالى ، وأنا لا أستطيع أن أؤثر فى نفسى بهذا الشىء ، أو أثور عليه أو أستقل عنه . وأكثر من ذلك أن الذى يحدث لى هو « ملكى » . وعلى هذا يجب أن نفهم أننى

فى مستوى كل مايحدث لى صادراً عن بشر آخرين ، لأن مايحدث للانسان من بشر أو من خلال نفسه هو إنسانى . وعلى ذلك فأقسى أنواع عذابات الحروب لا يمكن أن يخلق موقفاً غير إنسانى . وأنا قد أحاول التأثير بالسحر والغيبيات على ما هو غير إنسانى . ولكن قرارى هذا إنسانى ، وأنا متحمل لكافة مسئولياته . وبالإضافة إلى ذلك فإن الموقف هو موقفى أنا ، إنه ملكى ، لأن صورة اختيارى الحر لنفسى ، وكل ما يقدمه لى هو خاص بى ، هو ملكى ، بالقدر الذى يمثلنى ويرمز إلىّ به .

وعلى ذلك فليست هناك صدف فى الحياة ، ليست هناك حوادث جماعيـــة خارجة عنى ، يمكن أن تنفجر فجأة وتحتوينى داخلها . وإذا جندت مثلا فى حرب ، فهذه الحرب هى حربى ، فهى فى صورتى ، وأنا أستحقها . أستحقها لأننى أستطيع أن أخرج نفسى منها بالانتحار أو بالهرب . وهذه الحلول المتطرفة هى أقصى ما يمكن أن نلجأ إليه من حلول عند ما تستعصى الحلول . إننى أختارها عند ما يعوزنى الخلاص ، وحينئذ أختارها . وهـــذه الحلول هى حلول نلجأ اليها عند الإحساس بالعجز ، أو بنقص القوة الكافية على المقاومة والاستمرار ، أو بالجبن عن مواجهة الرأى العـام ، أو لأننى أختار قيما أخرى معينة على قيمة رفضى الاشتراك فى الحرب (كأن تكون هذه القيم مثلا رأى أقاربى فىّ

أو شرف الأسرة إلخ) . ومهما نظرت إلى هذه الحلول — من أية زوايا — فهى مسألة اختيار . وهذا الاختيار سيتكرر مرة بعد مرة بلا انقطاع حتى نهاية الحرب . ولذلك فنحن مع « جول رومان » عند ما يقول :

« لا توجد ضحايا بريئة فى الحروب » .

وإذن فلو أننى اخترت الحرب على الموت أو العار ، فأنا متحمل لكافة ما سيؤدى إليه اختيارى ، وما ستؤدى إليه هـــذه الحرب . ولكن الحرب شنها غيرى . إن الحرب نتاج تفكير واختيار وفعل غيرى . واشتراكى فيها مشاركة للغير فيها . إننى شريك الآخرين الذين أشعلوها ودفعوها . ولكن الحقيقة تقول شيئاً مختلفا . إن هذه المشاركة ليست إلا مظهراً قانونيا ، ولكنها من كل النواحى الأخرى تختلف عن ذلك . . إننى كنت أستطيع أن أمنع هذه الحرب . . . كان يمكن أن تمنع الحرب بواسطتى وعن طريقى ، ولكننى قررت أن توجـــد الحرب وتستمر . لم يضطرنى أحد ، ولم يجبرنى إنسان ، لأن الإجبار والاضطرار لا يسريان على الحر . وعلى ذلك فأنا غير معذور لأن الحقيقة الإنسانية هى أنها بلا عذر .

وفضلا عن ذلك فإن معاناتى للحرب ، هى اختيارى لنفسى

من خلالها ، واختيارى لها من خلال اختيارى لنفسى ، إننى لا أختارها لأننى أختار أن أكون فى « إجازة لمدة أربع سنوات » أو فى « المعاش » ، أو فى « الراحة » . أو أن مسئولياتى الحقيقية هى فى بيتى أو مع أسرتى ، أو مهنتى . إننى فى هذه الحرب التى اخترتها اخترت نفسى من يوم لآخر ، وأنا قد جعلتها تخصنى ، أى جعلتها حربى وملكى ، بأن جعلت نفسى شيئا يخصنى وملكى . وإذا كنت سأجعل من الحرب أربع سنوات « فاضية » فذلك لأننى اخترتها كذلك وأنا متحمل لمسئوليتهـــا .

والإنسان ، كل إنسان ، هو اختيار مطلق للذات ، من وجهة نظر المعرفة والوسيلة اللتين بهما سيتحقق هذا الاختيار ويشرق . وكل إنسان يكون فى وقت ما ثورة عاتية وشعلة متقدة ، وفى وقت آخر هابط ثاو لا تفكير فيه ، ولذلك كان ضياعا للوقت وعبثا أن نتساءل أحيانا ماذا كان من الممكن أن نكون لولا هذه الحرب . إننى اخترت نفسى كمعنى من المعانى الممكنة للعصر — هذه المعانى التى أدت إلى الحرب . وأنا لست منفصلا عن هذا العصر . ولا يمكن أن أنتقل إلى عصر آخر من غير تناقض مع ذاك العصر الآخر . ولذلك فأنا « هذه » الحرب التى تحدد وتسور وتوضح الفترة التى سبقت الحرب . وبهذا المعنى

يمكننا أن نحدد مسئولية « الوجود لذاته » تحديداً أكثر لو أضفنا لمثل « لا توجد ضحايا بريئة » هذه الكلمات « لأننا نستحق الحرب التى أشعلناها » .

وهكذا لا يجب أن أحس أى ندم أو أسف مادمت حراً حرية تامة ، وما دمت غير متميز عن العصر الذى اخترت أن أكون معناه ، ومسئولا مسئولية كاملة عن الحرب كما لو كنت أنا الذى أشعلتها ، غير قادر على العيش دون أن أدخلها كجزء متمم لموقفى ، مندمجاً فيها اندماجا تاما وموقعا عليها بإمضائى ، فأنا بلا عذر لأنى منذ وعيى بالوجود أحمل ثقل العالم ، بنفسى ، دون أن يخفف أى شىء أو أى أحد هذا الثقل عنى .

ومع ذلك فهذه المسئولية مسئولية من نوع خاص ، لأنه قد يأتى من يقول « إننى لم أطلب أن أولد » . وهذه الإجابة تأكيد ساذج لكل ماسبق أن برهنا به على مسئولية الإنسان ، فأنا مسئول عن كل شىء إلا مسئوليتى نفسها ، لأننى لست أساس وجودى . ولذلك فإن الدنيا تجرى من حولى وكأننى قد أجبرت إجبارا على أن أكون مسئولا .

إننى قد « تركت » فى العالم ، ليس بمعنى أننى قد أظل فيه ، « متروكا » وسلبا فى عالم معادٍ كلوح من الخشب يعوم على سطح

الماء ، ولكن بمعنى أننى وجدت نفسى فجأة وحدى و بلا مساعدة ، مشغولا بعالم أتحمل مسئوليته كاملة ، دون أن أستطيع مهما فعلت أن أنتزع نفسى من هذه المسئولية لثانية واحدة ، لأننى مسئول ، بسبب رغبتى نفسها فى الهرب من المسئولية .

إننى لو اخترت أن أكون سلبا فى العالم ، أن أرفض «الفعل» على الأشياء و «الآخرين» ، فأنا أختار نفسى ـ والانتحار هو « وجود فى العالم » ، نموذج للوجود فى العالم من بين مئات « الوجودات » الأخرى . وهذه الوجودات الأخرى حيال ميلادى تجعل سؤالى « لماذا ولدت ؟ » بلا معنى ، لأنها كلها طرق تحقق ميلادى بكامل مسئوليته حتى تجاه انتحارى ، لأن اختيارى للانتحار فيه تأكيد لملكيه لوجودى ، أن وجودى ملكى . وهنا أجد نفسى تلقاء نفسى ، وأواجه مشروعاتى ، بنتيجة واحدة هى أننى محكوم علىّ بأن أكون مسئولا عن نفسى ، أننى المخلوق الذى « يوجد » بالطريقة التى يكون بها وجوده محل مناقشة . وهـــذا « الوجود » لوجودى « يوجد » كحاضر غير محدد .

وما دام الأمر كذلك ، وما دامت كل حادثة فى العالم تبدو لى « فرصة » (فرصة يمكن استغلالها أو إهمالها) ، أو بتعبير

أحسن ، ما دام كل شيء يحدث لنا يمكننا أن نعتبره « صدفة » (صدفة تحقق هذا الوجود الذى نناقشه فى وجودنا) ، وما دام الآخرون الطارئون هم أنفسهم فرص وصدف . فإن مسئولية الوجود لذاته تنسحب على العالم أجمعه كعالم مسكون أو عالم فيه ناس .

ولهذا كانت مسئولية العمال فى العالم مسئولية ضخمة ، ومسئولية المثقفين كذلك ، رغم احتقار المادية للمثقفين والمادية وحدها أو الماركسية ، لن تصلح كفلسفة فعل فى العالم ، فلسفة وفعل ، أو فلسفة تمتزج بالفعل ، وفعل فيه الفلسفة ، إلا لو أخذت الوجودية ، واستوعبتها داخلها ، وإذن لصارت الفلسفة التى يحتاجها عالمنا وحاضرنا ، والتى نبنى بها مستقبلنا .

وقد يبدو لنا سارتر متناقضاً فى كثير من الأحيان مع نفسه ، وقد يبدو متطرفاً فى نبذه لكثير من القيم « الليبرالية » وعدائه للطبقة البورجوازية ، ولكنه دائماً أمين مع موقفه ، ومع موقفه فى بلده فرنسا بالذات .

ولقد ارتفع فكره السياسى والفنى والأدبى من الصفر ، فابتدأ وقد نفض عن نفسه كل القيم والأفكار والتقاليد الموروثة ، ثم أقام لنفسه أخلاقية من الصفر ، امتزج فيها الفكر بالعمل ، بل إن الفكر فيها هو العمل .

وعاش سارتر فكره ، وكان هذا الفكر ممتلئاً ريانا خصباً ، فجاءت حياته حياة شامخة ، وأدبه وفلسفته وفكره السياسى قمما من القمم الشوامخ فى فكر هذه الدنيا قديمها وحديثها .

* * *

وإن كل من يؤمن بأن الكاتب يجب أن تعبر رؤياه عن خلقه الذاتى ليحب سارتر ويقرأه ويجد فيه الحليف والنصير .

عبد المنعم الحفنى

أول أغسطس سنة ١٩٦٣

* * *